الفصل الرابع

الظروف التى ساعدت العرب فى فتح الشام

تحد الشام شمالا بجبال طوروس التى تفصلها عن الأناضول ، وتحد شرقاً ببادية الشام ، و يحدها فى الجنوب الشرق الصحراء والبحر المتوسط بحيث يتعين على الشام أن تكون الطريق الذى يمكن اجتيازه بجيش كبير يمر بين غرب آسيا من ناحية ، وشمال أفريقية الشرقى وأوربا من الناحية الأخرى . ومن أجل هذا كانت الشام فى أكثر العصور جزءا من إحدى الدول العظيمة التى ظهرت فى إحدى هاتين الناحيتين . فكانت طوراً ضمن الامبراطورية المصرية ، وطوراً تابعة لدولة آشور أو الفرس ، وآونة هى داخل الحدود الرومانية ثم الرومية . وكذلك كان دخولها ضمن الدول الإسلامية . سواء أكانت عاصمة تلك الدول المدينة أو دمشق أو بغداد أو القاهرة أو القسطنطينية .

وساحل الشام رملى منخفض فى بعض أجزائه ، إلا أن أكثره مرتفع وعر المنحدر ، وإن كان قليل الخلجان قليل الثغور الصالحة للملاحة ، وأكثر أجزائه ارتفاعاً جبل الكرمل وهو بروز إلى البحر قرب خليج عكا .

وإذا كان العراق متصلاً بجزيرة العرب من حيث التضاريس ، فإن الشام أوثق بها اتصالاً : ذلك بأن قسمها الشرقى وهو بادية الشام ليس إلا امتداد للنفود ، وسلسلة جبالها الشرقية امتداد لسلسلة الجبال التى تسمى

الحجاز والسراة ويسمى قسمها المتصل بالشام الشَّراة . ويسمى الجزء المتمم لهذه السلسلة والواقع فى شمال الشام الجبل الشرقى .

فإذا انتقلنا غربى هذه الجبال وجدنا المنخفض الذى يشمل وادى عربة والبحر الميت ونهر الأردن ووادى البقاع وهذا المنخفض بكل أجزائه جزء من الأخدود الشرقى شأنه فى ذلك شأن البحر الأحمر .

ويقع إلى الغرب من هـذا المنخفض سلسلة من الجبال هى تـكملة جبال سيناء (وسيناء فى نظر الهمدانى ومن تابعه جزء من جزيرة العرب) ويعرف القسم الشمالى من هذه السلسلة باسم جبال لبنان .

وليس بالشام جبل مهم بعد ذلك إلا جبل الشيخ الذى كان الأقدمون يسمونه جبل هرمون وهو إلى الشمال الغربى من دمشق ، ويرى من كل جهات الشام . ولذلك كان علماً تهتدى به القوافل .

ومن هذا الوصف يتضح أن الشام يمـكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ — القسم الشرقى وهو هضبة قاحلة تتخللها واحات .

٢ — القسم الغربى وهو سهل ساحلى خصيب بوجه عام ضيق فى بعض أجزائه وفيه ازدهرت حضارة الفينيقيين .

٣ — القسم الأوسط الواقع بين هذين القسمين ويشمل سلسـلة الجبال الشرقية وسلسلة الجبال الغربية كما يشمل المنخفض الواقع بينهما بمـا فى ذلك وادى البقاع ، وأهم أنهار الشام الفرات ونهر العاصى الذى كان قديماً يسمى الأورنط ، ونهر الأردن ويسمى الغور ومن نهيراته المهمة اليرموك .

ومن العوامل الجغرافية التى استغلها العرب فى فتح الشام ما يأتى :

أولا : أنهم وجدوا أنفسهم بالشام — أول الأمر — فى مثل الظروف الجغرافية التى ألفـوها من حيث التضاريس وبخاصة فى القسمين الشرقى والأوسط باعتبار كونهما إمتداداً لصحرائهم وحجازهم .

ثانياً : أن رحلة الصيف علمتهم بطرق الشام وأسواقها حتى لم يعد يخفى على تجارهم شىء منها ، بينما الأدلاء منهم يعرفون من تضاريسها كل ما يحتاج إليه قواد جيوشهم .

ثالثاً — أن العرب المسلمين وجدوا بالشام أناساً من العرب سبق لهم أن تغلغلوا فى هذا القطر من قبل الإسلام بأكثر من ألف عام حتى استقر بعضهم على تخومها الشمالية .

ومن نافلة القول أن نؤكد أن عرب الحجاز وعرب الشام كانوا يحسون اشتراكهم فى الجنس واللغـة والتقاليد ومن ذلك أن حسان بن ثابت كان شاعر أمراء غسان قبل أن يـكون شاعر محمد عليه الصلاة والسلام .

رابعاً : أن الموقع الداخلى لباديتى الشام والعراق كفل لهم الانتفاع بهذا الموقع كما شرحناه فى فتح العراق .

وأدرك أبو بـكر وأصحابه هذه المزايا فبعث إلى الشام بعدد من الجيوش يقصد أحداها التوغل فى جنوب فلسطين ويتجه الثانى إلى وسط الشام من ناحية البلقاء وهى الآن جزء من مملـكة شرق الأردن ويتجه الثالث إلى شمال الشام من ناحية دمشق وحمص .

وتتجلى مزية الموقع الداخلى فى انتقال خالد بن الوليد بنصف جيش العراق إلى الشام ، ثم رجوع بقية هذا الجيش إلى العراق فى الوقت المناسب للعرب

إذ كانت معركة القادسية دائرة الرحى . وقد اختلف المؤرخون فى الطريق الذى سلكه خالد فقال جماعة أنه بدأ من عين التمر وسار فى اتجاه شمالى غربى انتهى به إلى تدمر. وقال فريق آخر أنه سار من عين التمر إلى دومة الجندل ومنها سلك طريقاً إلى تدمر . والذى يهمنا من ذكر هذا الخلاف فى هذه المناسبة إتساع المنطقة التى كان العرب أحراراً فى التنقل فيها وامتدادها من قرب أرض صفين إلى دومة الجندل وما يليها جنوباً دون أن يكون لخصومهم أدنى رقابة عليهم .

خامساً : اجتماع العرب فى أذرعات استعداد الموقعة اليرموك يشبه اجتماعهم فى القادسية لأنهم فى الحالين كانوا على حافة الصحراء ومسندين ظهرهم إليها . وكان فى طاقتهم عند الضرورة التقهقر إلى المدينة من غير أن يتمكن الروم أو الفرس من تعقبهم إلى مدى بعيد .

سادساً : جمع الروم الجيوش لمقاتلة العرب وأصبح من الواضح أن كل جيش رومى يستطيع أن يقضى على الجيش العربى الذى بازائه . وفطن العرب لخطر التفرق واستقر رأيهم على الاجتماع فى أذرعات ؛ وتسمى درعا فى الوقت الحاضر وهى قرب منابع اليرموك . واليرموك نهر صغير ينبع من مرتفعات حوران وينساب فى خانق ضيق متعرج محفور فى هضبة من الحجر الجيرى ومغطاة بطبقة من البازلت ، ويتصل بالأردن على بعد ستة كيلو مترات ونصف جنوبى بحيرة طبرية وقبل ملتقاه بالأردن بنحو ٣٢ كيلو متراً يدور اليرموك على شكل نصف دائرة تقريباً . بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب بينما بقية مدخله مغلق بخندق طبيعى .

وأخطأ الروم فعسكروا إلى الشمال من نهر اليرموك وفطن العرب إلى خطأ عدوهم فرصدوا لهم جماعة كثيفة فى باب السهل الذى يغلق الخندق بقيته . ودار جمهور الجيش من وراء الروم وما زال بهم حتى أحاط بهم بحيث لا يستطيعون التقهقر إلى الشمال . فلم يبق أمام الروم ، وقد ساقهم العرب من خلفهم إلا أن يتجهوا إلى الجنوب حيث اليرموك — وهو خانق عميق كما قدمنا — وحيث الخندق — حتى إذا انحصروا بين هذين ، حاولت خيلهم الافلات من الباب . ونصح الزعماء لجنودهم بأن يفسحوا لها مجال الفرار فتفرقت فى البادية .

و إذ ذاك انقض العرب على رجالة الروم فهوى أكثرهم فى خانق اليرموك واندقت أعناق الآخرين فى الخندق . والظاهر أن الهلاك أدرك أكثرهم عند منحنى النهر القريب من الواقوصة . ولذا تسمى معركة اليرموك أحياناً معركة الواقوصة . والاسم الحالى لهذا المكان الياقوصة .

وكان هذا الانتصار الحاسم سنة ١٥ هـ — ٦٣٦ م لم يستطع الروم أن يقاوموا مقاومة حربية تذكر . فنال المسلمون الشام وودعها هرقل بقوله : « وداعاً يا سورية ، أيها القطر الجميل ، وداعاً لا لقاء بعده ، فانت اليوم بلاد الأعداء » .

و بلغ العرب السفوح الجنوبية الشرقية من جبال طوروس ، فوجدوها أشد بأسا من جنود الروم بسبب وعورتها و بردها القارس . و بسبب هذين الدرعين وعورة طوروس و برد آسيا الصغرى وقف الفتح العربى فى هذه الناحية لأن البرد — كما تقدم عدو لا يقهره العرب . و بقى الأمر كذلك حتى جاء

السلاجقة ومقرهم الأصلى إلى شمال شرق نهر سيحون وهى البلاد الباردة التى وقفت عندها الفتوح العربية فى الشمال الشرقى . و بفضل تعود السلاجقة هذا المناخ البارد تهيأ لهم فتح هذا القطر فى عهد زعيمهم العظيم ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ — ١٠٧٢ — ١٠٩٢م) وامتدت دولة سلاجقة الروم إلى سنة ١٣٠٠م وخلفها فى هذا القطر الدولة العثمانية . وهو اليوم الوطن الذى لا يعرف الترك العثمانيون وطناً سواه حفظه الله عليهم إلى يوم الدين .

obeikandl.com